أحلام الفجر

بقلم ابراهيم المصري

كنت اذ ذاك فى نحو الرابعة عشرة من عمرى ، وكنت مشغوفا بمطالعة قصص «اللص الشريف» و «روكامبول» و « ابن روكامبول » كما كنت مدفوعا بغريزتى وتحت تأثير هذه المطالعات الى محاولة تأليف القصص ..

وكان والدى يكره اتجاهى هذا . ويشتد فى ضربى عنه - ويضربنى ضربا مبرحا كلما ضبطنى وانا اقرأ الروايات او اكتبها ، ولا يفتأ يردد على مسامعى ان كتابة القصص لا يمكن ان تطعم صاحبها ، وان الادب مهنة الصعاليك وان خط الاديب هو ان يعيش متسولا ويموت مهتوك الكرامة يائسا مقهورا .

وكنت انا المفرط ولعى بهوايتى ، وتحليقى الدائم فى عالم الخيال ، واعتدادى بنفسى وشخصيتى وعظمة اتجاهى ، انظر الى والدى من علياء ، واستخف به ، والقى لطعناته فى صمت واحتمال وانا ارثى لحاله ، واعامله ، وامعن فى الاستسلام لرعونتى ...

بيد ان رغبته الشاهرة كانت تراودنى ، وتحوم حولى ، وتحيى الغرض كى تتخطفنى متلبسا بالجريمة وتبطش بى . فكنت افر من بيتنا ، واهرع الى حانوت المعلم «مرسى» الشربتلى الكائن بجوار حارتنا ، واقع فى ركن من الحانوت ، واطل اقرأ واكتب ، والسكرية

والحدادون والنجارون والباعة السريحة يحيطون بي ، ويترشمون اقداح الشراب المثلجة وهم يتمامرون علي، ويرشقونني بنظرات دهشة مستغربة فيها مزيج من السخرية وشيء غير قليل من الاعجاب .

وحدث ذات مساء ، وانا في الحانوت مستغرق في كتابة رواية عرابيه ومنهمك في حبك وقائعها التي بهرتني؛ ان دخل والدي الحانوت وباغتني ، ثم انقض علي ، واختطف الرواية مني ، ومزقها ، وطفق يضربني ويركلني امام النجارين والحدادين والسمكرية ، وهو يحدس من ذراعي ويجرني الى البيت جرا ، ويسبني هادرا ويلعنني .

وكر علي ان اضرب واهان امام العمال والباعة واطفال الحي فثار ثائري ، واستجمعت قواي ، وتملصت من والدي ، ومضيت اركض وفي نيتي الا اعود الى بيتنا ، وان اؤد بمنزل حالي الذي كنت احبه وكان يحبني . ولكن والدي لحق علي الدور بي ، واطبق علي ، ثم تمكن مني ، وساقني الى البيت سوقا وهو يبسم ابتسامة باردة متوعدة ارتعدت لها فرائصي .

ولم تكد ندخل البيت حتى اسرع والدي وأوصد بابه بالمفتاح ، ثم دس المفتاح في جيب سترته ثم اندفع الى الشرفة وفك حبلا من حبال الغسيل . فادركت أنا مراده وحمد الدم في عروقي . أمي والدتي تعلقت به مسترحمة ومولولة وهي تطوقني بذراعها لتحميني . ولكنه زحزحها في عنف واقصاها ثم نضا عنه سترته ، وأمرني بأن اجلس على الأرض وان اخلع حذائي وجوربي . فامتثلت وانا ارتجف . فهجم بغتة علي ، وربط بالحبل قدمي العاريتين ثم عقد الحبل في احد اعمدة السرير ثم انحنى وفك الحزام الجلدي الاسود الذي كان يمنطق به ، ثم رفع ذراعه الباطشة ، وانهال بالحزام ضربا على قدمي . فتلويت انا من فرط الالم وصرخت :

— في عرضك يابا ... في طولك ... حرمت ... حرمت خلاص ...

ولكنه ظل يضرب في لذة وشماتة وعناد . فتمالكت صيحات امي ، واحسست انا كأن لفحات من نار تحرق قدمي وتسلخ جلدي . فارتفع ايضا صراخي ، واختلط بتوسلي وتحسي ، فازداد والدي حنقا على وامعانا في ضربي والتنكيل بي .

وعندئذ سمعنا دقا عنيفا متصاقبا على الباب الخارجي ، وصوتا متهافتا يقول :

— افتحو ... ماتفتحو امال ...

فتنصتت امي الصماء ، واستدارت واثبة ، وعاجلت ابي وهو يضربني ، واستلت المفتاح من جيب سترته ،

واسرعت وفتحت الباب . فدخلت جارتنا النائبة الحمراء « الست بهية» زوجة « الحاج طلبة » صاحب الطابونة الكائنة في اقصى حينا . دخلت ملهوفة ومبهوتة ومذعورة . فتنبهت انا لوجودها ،واشتد ذلي وحنقي وعذابي، فجلت كل الجهد من وضعي الشائن ومنظري المزري . فضجت بدني جاهدا ،وطفقت اغطي باطراف جلابيتي

على المكشوفة وعورتى وسافى الصاريتين . أما الست بهية فلم تكد تبصر والدى يلوح أيضا بحزامه الجلدى ، وتراني منطرحا على الأرض اتلوى وابكى ، وقدماى مرفوعتان ومعلولتان الى السرير ، حتى تراجعت مستكرة ومسهولة ، وضربت صدرها بقبضتها وصاحت

ـ يا نصرى .. الواد حيموت .. حرام عليكو يا اخواتى ... بس يا عم سليمان .. بس .. كفاية كده ... علشان خاطرى ... اسيح العيه دى فى وشى أنا يا عم سليمان ...

وانحنت على والدى ، ورنت بيدها الرخصة على كتفه ، وقالت فى صوت ناعم متوسل عذب :

ـ مالش خاطر عندك يا عم سليمان ؟ ...

فارخى والدى ذراعه ، وتطلع الى المرأة ، وقال وهو يفتل شاربه

ـ علشانك انت بس ... لكن والله العظيم لو عادها مرة تانية، حاموته !.. اسيح دمه !.. قال ماير يطلع ادباتى وحمرالحجى قال ؟ .. عايز يعرس ويهدلس ، ويعيش ويموت شحات ؟ ..

وفك الحبل وصرخ :

ـ فر .. قوم .. قوم حتى اودتك وداكر دروسك حالا ... يالا ...

فتحاملت على نفسى وأنا انهث ، وانحت بوجهى كى لا يقع بصر الست بهية على . ولكنها دنت منى، وطوقتنى بذراعها ، وقالت وهى تمسح بيدها على شعرى :

ـ انعى اسمع كلام أبوك ياحبيبى .. دا قلبه عليك ...

فجعت دموعى وتطرت اليها . نظرت الى الست بهية من طرف خفى وراعنى منظرها . كانت معصوبة الراس بمنديل أحمر ، تتهدل اطرافه المرصعة بحبات الترتر وتتراقص على الدائرة المكشوفة من حسنها الناصع البياض . وكانت بيضاء الشرة بلون الحليب ، واسعة العينين ، مفروزة الحاجبين ، ناهدة الصدر ، ذات نظرة فاترة فى طيبة وحنان ، وحركة رخوة فى غرة ودلال ، لا تفتأ تبسم ابتسامة لسه رقيقه وهى ترفع ذراعها البضة ، وترد عن عينيها السوداوين الواسعتين حبات الترتر باصابعها المخضبة بالحناء ...

لم ارها ابدا فى مثل هذا الحسن الساحر الحنون . فحسبت بالرغم منى أحدق فيها . فاستغربت هى نظرتى الطويلة وعضت من بصرها . فلبثت أتاملها واجما ولم اتحرك . فعاد صوت والدى وصاح يستعجلنى :

ـ مستنى ايه ؟ ... حتى اودتك قوام وداكر ...

فأطرقت وحولت وجهى ، ومشيت متثاقلا فى اتجاه غرفتى ، بينما كانت امى تشكر الست بهية ، وتعانقها . وتمسرها بالقبلات ، وتلتمس اليها أن تمكث لحظة اخرى ريثما تعد لها فنجانا من القهوة أو قدحا من شراب التمرهندى ...

***

ولست ادرى ما الذى اصابنى بعد ذلك اليوم . تسيب اللص الشريف ،

وروكامبول ، وأبي روكامبول ، وأليف الروايات ، ولم أعد أفكر الا في السيدة بهيه التي عطفت علي وانقذتني ...

ولم أكن قد اهتممت بها من قبل ، او امعنت النظر فيها ، او تنبهت الى جمالها الفتان ... فلما خفت لنجدتي من دون الحيران جسمها ، تألق وجودها فجأة أمامي ، وخيل الي اني أراها لأول مرة ، وانها سكنت عمارتنا بالأمس فقط ، وانها امرأة رائعة وعظيمة لم اشهد لها بين كل من رأيت من النساء نظيرا ! ...

وانعقدت اليها انعقادا طارئا مستبدا انهكني واضناني . فبت احلم بها في نومي ، واراي عليها في يقظتي ، واسمع صوتها العذب الحنون يخالس سمعي كنبي واوراقي . ثم اتمثلها بغتة وهي تمسح بيدها الصغيرة على شعري ، فاغمض عيني مترنحا من فرط نشوتي ، واحس كأن دمي كله يعلي في عروقي ويوشك ان يتصاعد الى رأسي ويصرعني ...

ولم استطع ان أعيش دون ايرادها . وكانت تسكن في الطابق الاول من عمارتنا ونحن في الطابق الثاني . فكنت أحيي رفاقي واصوغهم الى اللعب تحت نافذتها ، عسى ان يثيرها ضجيجهم فتطل من النافذة ولو لحظة ...

وكنت اكمن لها في بئر السلم ساعات ، وانتظر في الظلمة وانا اتحرق ، وملء نفسي الأمل في ان تخرج لزيارة ، او تستقبل ضيفا ، او تنادي بائعا ، فاختلس طلعتها الساحرة خلسة ثم امضي ...

وكنت اريد لأمي زيارتها ، وأوعز الى أبي ان يوثق عرى الصداقة بينه وبين الحاج طليه زوجها ، واعلو واسرف في مجاملة هذا الزوج الكهل الطيب الصموت البليد ، الى حد اني كنت استوقفه في الشارع وهو يحمل بطيخة او شمامة واتبارع في تحيته واحترامه ، واستأذنه في حمل الفاكهة الثقيلة عنه ، والذهاب بها مسرعا الى بيته ، كي ارى امرأته الجميلة فترة واسعد ...

ولما كنت ارى الست بهية في خلوة سابحة عابرة ، كان يخفق قلبي ، ويبتقع لساني ، ويتصبب العرق من جبيني ، واقف امامها جامدا ذاهلا مخجلا ، كتلميذ خانته ذاكرته ساعة الامتحان ، وسي الدرس الذي كان قد استظهره وكان يعتقد انه قد وعى كل عفرة فيه .

ولبثت هكذا اياما طويلة احوم حولها واتقصاها ، واشعر بمجرى المطلق عن الاهتداء الى طريقة مأمونة تمكنني من التقرب اليها والاتصال الوثيق بها .

وساورتني عوامل الحيرة والقلق زمنا ، فتمهلت وكدت اياس ، ولكني اهتديت فجاة وطربت ... فكرت في ابنها الوحيد ، في ابنها البالغ من العمر سبع سنوات ، في طفلها المدلل الكسول العصي « شعبان » ، الذي يتلقى العلم في مدرستي نفسها ، والذي اشتهر بضعف الشأن في المطالعة والاملاء والحساب . فآليت على نفسي ان اتودد اليه ، واني اصادقه ، واني اعرب لأمه عن استعدادي لاعطائه بعض الدروس الخاصة في مختلف المواد المستعصية عليه .

وتشجعت بالعمل وطرقت باب

الحاج طلبة . ولما كانت الست بهية تعد ابنها الوحيد وتريد أن ترفع به راسها فى الحارة كلها ، فقد ابتهجت بما عرضت عليها ابما ابتهاج ، واسلمت به روحها الذى اقرها عليه . ثم زارتنا فى اليوم نفسه ، وشكرتنى امام امى المزهوة وابى الفخور داعية لى بطول العمر ، ثم بعثت بابنها فى مساء اليوم التالى ليتلقى درسه الأول فى منزلى ..

وبهت انا واعتلت لاحقاق تدبيرى . ولكن الصدف اوحى الى فكرة جديدة . فلم اتردد واحتلت جهدى وتحايلت . وسلطت اخوتى على شعبان . فتحرش به ثلاثتهم ، وعيروه بكسله ، وطفق اصغرهم يخطف اقلامه وكتبه . فتضارب الأربعة . فصاحت امى فزعا بنا . فطنت انا لخاطرها واسرعت واصطحبت الصبى الى داره ، وقلت لوالده ان ابنه شديد الضعف فى مادة الحساب ، وان اخوتى يعاكسونه ، وان من الخير له أن يتلقى الدروس فى بيته هو وفى ساعات فراغى ... فقطب الحاج طلبة حاجبيه لحظة . ولكنه عندما تأمل قامتى الضئيلة وسطوتى القصير ، هز كتفيه مطمئنا وسلم . اما الست بهية فقد اعتصرت نصرى اخلاصا لابنها وتفضلا منى . فرحت بى وابت الا ان تكرمنى . فاطلت من النافذة ، ونادت امى ، واستاذنتها فى ان تستبقينى تلك الليلة عندهم كى اتناول معهم طعام العشاء ..

***

ودخلت بيت الست بهية طاهرا . واصبحت اراها فى كل مساء تقريبا .. ولكن اكسب مطعمها ورضاها ، تفانيت فى الاهتمام بابنها ، والاخلاص فى تعليمه ، والغيرة على مستقبله . فتقدم الصبى تقدما ملحوظا . فباهت الست بهية جيلاء وعجبا ، وتشبثت بى ، ورفعت كل كلفة بيننا .

ولم اكد اشعر باقبالها على حتى تجاسرت وانتهزت فرص ايام العطلة . وبدات ازورها فى الصباح ايضا وفى غير مواعيد الدرس واثناء غيبة زوجها . فكانت تستقبلنى هاشة متهللة ، وتضاحكنى ، وتعابثنى ، وتعودنى بعد الى المطبخ . فاجلس على الارض بجوار شعبان ، واراها تغدو وتروح امامى ، وحقق قفاها الصدفى الساحر يرن موقعا على دقات قلبى . ثم اراها تحدث الطلبة فجاة وتجلس متربعة تحاكى وتاخذ فى اعداد الطعام . فاشاركها فى تخريط الملوخية ، او تقميع الباميه ، او تقشير الباذنجان ، او تصفية الطماطم ، وانا ارمق بعين مختلسة حبات الترتر المتراقصة فوق حاجبيها المقرونين ، ووميضات الاساور المصطفقة فى معصميها المستديرين ، وهبات انفاسها المتصاعدة من صدرها الملىء ورعشة عينيها السوداوين الواسعتين كلما انحسر ثوبها عن نحرها ، فردته بيدها الرخصة المخضبة بالحناء ..

وكنت سعيدا كل السعادة ، يضطرم كيانى نعمة فاندفع نحوها ملهوفا واذا احتاج . فانظر هى الى نظرة باسمة هادئة متفحصة .. فتخلع بدنى واتراجع ، واكتفى بان اسبح فى حوها الطلق ، واتنشق عبيرها الحاد ، واملأ سمعى وبصرى من حقق قفاها ، وقصف ضحكتها ، وخشخشة اساورها . ثم اعود الى البيت مطمئنا وطيعها

المكين ، مفعول الشارب ، فى عينيه الرواعتين الشاقتين بريق مرح وصحة، يلمع فترة ثم يخبو ، فتقسو نظرته بعد لين ، فيحاول ان يلطفها بابتسامة معسولة وحديث ناعم رقيق ...

وكان يتكلم وهو يتلاعب بشرابيه كوفيته ، ويكت ويتطرف ، ويسترق النظر الى الست بهية وهى تتأمله جالسة وتتفرس فيه . أما انا فكنت اشعر شعورا قويا أن هذا الرجل الذى جاء بيت الله الحرام كاذب ومنافق ولئيم وشرير . فلم اطق رؤيه شاربه المتوقح المتحدى . فنهضت مستأذنا ، فلم تشجعنى الست بهية الى البقاء كعادتها وظلت تنصت الى حديث الحاج عبد السميع ، فلحق بى روجها ،وربت على كتفى ، واراد ان يقدم لى عقود عنب واصبعين من المور . ولكنى رفضت شاكرا متأبيا ، وتملصت من الرجل وانصرفت ...

واختفى الحاج عبد السميع ، ونسيته انا تماما . غير انه عاد بعد ما ظهر بعد أيام ، وتسلل فجأة الى بيت قريبه وصديقه واخيه .

وكان الحصاح طلبة برغم بلادته حريصا على بيته ، غيورا أشد الغيرة على عرضه ، محرما على امرأته ان تستقبل اى رجل فى غيبته — بعد ان الحاج عبد السميع كان يتذرع بصلته القرابة ورابطة الأخوة ، ويقتحم بيت صديقه سواء أكان موجودا فى البيت ام غائبا .

وكبر على الحصاح طلبة ان يشبهه فيجعله موضع ريبة . فتحساور عن تصرفه ، واكتفى بان قال لزوجته امامى انه اذا اتفق ورارها الحصاح عبد السميع فى غيبته ، فيجب ان تشعره هى بسوء تصرفه وخروج مركزها ، ويجب ان يظل الصبى شمعان بينهما ، أو يظل باب البيت مفتوحا حتى ينصرف الرجل الغريب .

وهذا ما حدث بالفعل أول الأمر . ولكن شيئا آخر حدث بعد ذلك،وكسب الحظه واتسرق ... كان الحاج عبد السميع يكثر من زيارة الست بهية فى غيبة صديقه . فكانت هى فى تلك الفترات توصد باب البيت ، وتحرص كل الحرص على ان يكون الصبى شمعان بينهما . غير انها فى الوقت نفسه كانت تقصينى انا ، وتعبس فى وجهى اذا دخلت عليهم ، وتحاذر أن تحادثنى ، بل تنفر صراحة منى ، وتمر بى جامدة باردة متبرقعة كأنها لا تراني ولا تعرفنى ... تغيرت تماما ... انقلب عطفها الى جفوة ، وحنانها الى قسوة ، ولينها الى غلظة . واقبالها الى شبه نبذ واحتقار ...

حرمت على زيارتها الا فى مواقيت الدرس ، بينما اصبحت تستقبل الحاج عبد السميع فى اى وقت شاء . اجل كانت تشجع له عند الحاج طلبة امامى وتثنى على أخلاقه اطيب ثناء ، وتقول انها حجة منه لفرط أدبه — وانه لا يدخل البيت الا وهو يحمل هديه لشمعان ، وان ليس فى مقدورها ان تتنكر له وتصده ما دام يحترمها ويبشر اليها هى ايضا باعتبارها أختا له ...

وكان الحاج طليه يستمع اليها ويهز راسه حائرا مذهولا ويصمت . أما أنا فكنت اتمدد ، كنت أتطر . كنت اود لو استطعت أن أصرخ هذا الروح البليد لأوقظه ، وكنت في الوقت ذاته اشعر انى دليل وحقير ، وانى طفل وعزيز ، وان الست بهية قد لعبت بي، ونسلت فترة على حسابي ثم لفظتني وتعلقت برجل ... رجل قوى ، وعمي وجميل ... رجل لا قدرة لي عليه ، رجل حطمني وسجل على الهزيمة والخزي والعار ...

وحز في صدري صمتي وعجزي . فكرهت الست بهية ، واعتقدت انها سقطت . ثم عز على حلمي وايماني فاعتقدت انها لن تسقط . ثم راجعت فكري وايقنت انها بالفعل قد سقطت. فتمزق قلبي ، واسودت الدنيا في عيني ، وعدت فارتميت عامدا في مطالعة الروايات وتاليفها . فباعتني والدي مستهولا حرائي واصراري فرحبت بصرخاته وضرباته وفنون تنكيله كي اتحمل عذاب الاستشهاد مضافا الى عذاب الحب الخائب ، فاعيش في الم متصل مروع ، واشعر على الأقل انى أصبحت شهيدا وضحية !!!

وحاولت أن أكف عن تدريس الصبي شعبان دودا على كبريائي وخشية ان افاجا اثناء الدرس بزيارة الحاج عبد السميع . فتمارضت أياما واعتذرت فلم ترسل الست بهية في طلبي ، فبلغ الحنق مني مبلغه وكاد اليأس أن يقتلني .

وفجاة ، وفي عصر أحد الايام ،

سمعت صوتها ، صوتها الأول ، صوتها القديم ، صوتها العذب الحنون ، يسمعت من نافذة بيتها ، وتستفسر عن أمي ويناديني ... فوثب قلبي في صدري واندفعت ، اندفعت عطوة ثم تراجعت ، أبيت ان أذهب ، عضضت على شفتي باسناني ، وغرست أظافري في راحتي، وتصلبت جامدا وابيت أن أذهب . ولكن الصوت الحنون عاد يرن في مسمعي . فانهار بغتة عزمي ، وطاطات راسي صاغرا وذهبت ...

ولم اكد ادخل بيت الست بهية حتى أبصرت الحاج عبد السميع ، فدخلت ... كان هناك ... كان بحوارها ... كان جالسا على مقعد بالقرب منها ، يلاطف ابنها ويقبله ثم ثم يميل بجسمه اليها ، ويحادثها في انفعال ، ويهمس في اذنها همسا متهافتا حريا وهو يتلاعب باطراف كوفيته الحريرية الصغيرة الخضراء ... اذن لهذا هادتني ؟! ... لماذا أصرت على مجيئي ؟! ... لماذا ارادت أن اعكر عليها صفوها وهي في شبه خلوة مامونة مع صديقها ؟! ... ان الحاج عبد السميع قد انتفض لقدمي ، وهاهو ذا يرمقني بنظرة شزراء وكانه يريد ان ينقض علي ليخنقني .

وحدقت الى الست بهية وانا احييها فنهضت لعورها واتية ، وحدبتني من ذراعي ، وتعلقت بي ، ثم جاءت بمقعد وضعته بينها وبين الحاج عبد السميع ثم التمست الى أن أجلس على المقعد ، ثم ابتعدت هي بمقعدها قليلا وبدتها يرتجف ... كانت شاحبة . كانت مضطربة . كانت قلقة . فتطلعت

اليها متأملا وشبهت .. اشرقت بصيرتي بغته وتأكدت ... تأكدت ان حبيبتي لم تسقط ولن تسقط ، وان الرجل يطاردها وهي تقاوم ، وانها وان كانت قد انجدت اليه الا انها تخاف منه ، وتخاف من نفسها ، وتخاف على بيتها ، ولا تجد في شخص انسها الصغير قوة تعصمها ، وتريد مني انا ... انا الذي لم اعد طفلا ، ان احمي تحدتها ... وان أكون السد الحائل والجدار المنيع الذي يفصل بين الحاج عبد السميع وبينها ...

وارتدت الى روحي ، واهاجني الفرح بقوتي ، فتشبثت بمكاني ، وتحولت صوب الست بهية أذود عنها بصدري ، وطفقت ارمق الحاج عبد السميع بالنظر القرر أنا أنصا ، واتعالى عليه ، واستخف به ، وهو يحدجني بعين مستشيطة غير مصدقة ، ويمد يديه المتصلبتين في انحناءة كأنه يريد أن يقتلعني من مقعدي ويقذف بي الى الشارع ...

ولما احس الا حيلة له في التخلص مني ، اصطنع البشاشة والضحك ، ثم نهض متثاقلا ، واستدار وهو يصافح الست بهية في فتور ، ويرجوها أن تسلم له على الحاج طلبة ، ويقول لها انه سيزورها قريبا كي يحمل اليها الهدية الكبيرة التي وعد بها انسها شعبان وهي ، بدلة تشريفة ، موشاة بالقصب ، يتدلى من وسطها حزام مذهب فيه سيف صغير من خشب ...

وحاملته الست بهية ، وشيعته حتى الباب ، ولكن لا بدلة التشريفة ولا غيرها من الهدايا الفاخرة التي كان يحملها الرجل المغيض ، أطلقت في الطلب على حبيبتي ، ودفعها الى اقصائي ... عادت الى وعدت اليها ... عادت الى أكرم نفسا وأبلغ ردا واوفر سماحة مما كانت عليه ، فعدت من جديد الى حياتها ، ودخلت مطبخها ، وحرطت الملوخية معها ، وأكلت وشربت من يدها ، وعمرني العبير المتضوع من حولها فسكرت وانا لا أعرف الخمر ، ولم تعد تسعى الدنيا .

وكان كلما أقبل الحاج عبد السميع في عجلة روحها ، وكنت أنا في مرقبي ، تسرع هي وتناديني ، فانطلق اليها كالسهم ، واعكث بين الرجل وبينها ، واظل أكيده وارهقه بوجودي حتى يضيق ذرعا بي فينصرف ، فأعجز عندئذ عن ضبط قلبي ، فتنحدر قرحتي بالرغم مني .. فأحمل شعبان بين ذراعي وأطوف به غرف البيت وانا راقصا وانا لا أعي ...

وأحسست اذ ذاك فقط بأني انسان احسست اذ ذاك فقط بأني قد أصبحت لي الطق رجلا ، فكنت أهتف في نفسي ان حبيبتي تثق في ، وتحتاج الى ، وتعتمد على عوني ، فيلتهب كبري ، ويتجدد أملي ، وانطلع في يقين الى المستقبل الزاهر المشهود الذي تتشجع فيه الست بهية ، فتطرد من بيتها الرجل الدخيل ، وتعود بحبها الى ...

وكان الحاج طلبة قد بدأ يضيق من عملته وبتبعه ... كان قد بدأ يستريب بصديقه ويصد عنه ويتحين الفرص لالزامه حده والتخلص منه ، فراداني

هذه اليقظة فرحا ، وانشرح صدرى وآمنت بالقدر الكامل المكفول .

وفجأة ، وفى مساء يوم من أيام الشتاء ، مساء مكفهر عاصف مطير ، وقع شىء خارق ، شىء لم أتوقعه أبدا ، شىء زعزع كيانى بأشد مما كان يزعزعه الرعد الذى يدوى فى الفضاء حولى .

كان باب شرفتنا موصدا ، وكنت أطلع من خلال زجاجه الى الغيوم المتكاثفة المتلاطمة تأكل بعضها كأنها الغيلان ، واذا بى ألمح الحاج عبد السميع يدخل الحارة ويتجه نحو عمارتنا ... فارتعشت وانطلقت تزا الى الخارج وأنا أصيح بأمى انى ذاهب لتدريس شعبان ... ولكن خادمتنا مبروكة التفتت الى عندئذ وقالت ان شعبان غير موجود فى بيته ، وانها التقت به ظهرا فى السوق فقال لها ان أمه قد بعثت به الى منزل صديقها البك حقيقة ، وانه سيقضى هناك مع اولادها ، ثم يصطحبه خادمها الى الطابونة كى يعود فى رفقة والده ليلا بعد العمل ... فتخصصت أنا الى الخادمة واصطربت ، اصطربت لحظة ، ولكنى مع ذلك لم أحفل كثيرا واثقا ، واثقا من ان الست بهية قد فوجئت بزيارة الحاج عبد السميع وان هذه الزيارة لا بد ان تحرجها وتخيفها ، وانها لن تقبل أبدا بأن تظل مع ذلك الرجل فى البيت بمفردها ، وانها وهى تعرف انى فى منزل ، لابد أن تستنجد بى ، وتطلب حمايتى وتبدع بأية حجة لتناديني ... انتظرت طويلا ... ولكنى لم أسمع ... لم أسمع شيئا .. لا صوتها ، ولا صوت ضحكاتها ، ولا أية حركة صادرة عن بيتها . فأجلت النظر حولى داخلا وكف قلبى عن الخفقان ... لماذا ، لماذا لم تنادنى هذه المرة ، وما معنى هذا الصمت الشامل الخانق المكتوم ؟

واضطرم خيالى ، واحتدم فكرى ، وساورتنى الريب والشكوك ، بل تساقطت على كوابل المطر الذى كان يهمر أمامى . فقلت فى نفسى وأنا أختلج : أممكن هذا ؟ ... أفى الاحتمال تصور شىء كهذا ؟ ... أيمكن أن تكون على اتفاق سابق مع الحاج عبد السميع، وانها قد بعثت بابنها الى صديقتها عامدة ، وأبت أن تناديني ، ليخلو لها الجو مع رجل هو خليلها ؟ ...

وفار دمى ، وأحسست كأن خواطرى تستحيل الى سياط من نار . فلم أتمهل ، ومضيت لتوى ، وهبطت الدرج وطرقت باب الست بهية ...

وفتح الباب بعد لحظات ، واطلت المرأة من فرجته ... وما كادت تلمحنى حتى تنفست ، وما كدت أفعل أنا حتى دهمت ، لم أر هيئتها المعتادة الرأس بمنديلها ، ولم أر خيلات الترتر تتراقص فوق حاجبيها ، رأيتها عارية الرأس ، مشعثة الشعر ، زائغة البصر ، مقطبة الجبين ، تنظر الى نظرة ساخطة وقاسية ، وتقول لى مع ذلك فى صوت عاثر متقطع ملهوف :

ـ شعبان تايم ... تعال تايم ... ابقا تعالى أما يصحا ... باليل ... باليل ... أنا جيفا اندهلك ...

وتراجعت مسرعة وأوصدت الباب

فانهار قلبي في صدري واحترقت . تعادلت ركبتاي وكدت اهوي على الدرج - فاستندت الى الجدار وعيني مشتتة في الباب - ولكني لم اطق . لم أطق رؤية بابها ، ولا تصور شخصها، ولا تذكر الكلمات الكادبة التي نطقت بها . فهمت كل شيء ... فهمت في تلك اللحظة كل شيء ... كانت المرأة احيانا تناديني وتلجأ الي وتحتمي بي وتظهر لي الود والعطف ، لا لتدود عن نفسها وتحرص على طهارتها وتتقي اغراء رجل مريض بها ، بل لتستدرجني بهذا الرجل ، وتضللني أنا وتخدعني ، وتلعب في روحي انها امرأة شريفة . وانني عندها أثير وعزيز . فتأمن بهذا التصرف شر غيرتي ، وشر ثورتي ، وشر لساني عند اهلي والناس ، فتكسبني ولا تفتضح ...

فهمت كل هذا ، وآمنت بكل يقيني ان الرجل حليلها . فاستعر في غضب كغضب حيوان أحد في فمه - فأردت أن أحطم الباب وادخل . ولكن خيل الي اذ ذاك اني أسمع ضحكات وهمسات وزفرات ولهثات . فاقشعر بدني ، وارتد نفسي الى صدري ، وفررت - خرجت الى الحارة ثم الى الشارع . وما ان رأيت الحركة والحياة والناس ، حتى رأيت أيضا نفسي ، رأيت رجولتي ، رجولتي التي اعتقدت اني قد حققتها وامتلكتها وبدأت أعتز بها ، تنتهك أمام عيني وتذبح ذبحا وتموت ... شعرت اني اقل من اقل شيء ، اقل من طفلة ، واقل من شمشان ، واقل من رضيع ، بل اقل من الحشرة الحقيرة التي تدب على الارض والتي يدوسها الناس بالاقدام .

وصحوت ، وعلى قدر ذل وهواني ، جاش كبري ، واتقد حقدي ، وعاد لهب الغضب فاحتواني ، ودفعني الى النار فورا لكرامتي . فاندفعت ... كأعمى ، وهي بيتي أن أذهب الى الطاهرة وأرى الحاج طليبة ، وأكشف له عن الحقيقة كلها ، ثم اقتاده بنفسي الى بيته ، وادخل البيت معه ، ثم اشتمت واشفي وانفع علني ، وانا أبصره بعيني راسي يبتهم لي ويوقع العقاب الصارم على المرأة الخائنة وعشيقها ! ...

وكان الليل قد ارتمى على الارض كوحش ، وأصيئت في الحوانيت بعض المصابيح ، وأوشك ان يعود الحاج طلبة الى منزله في صحة شمشان . فاردت ان أسرع وأتصل به قبل ان يعلم منه الحاج عبد السميع . فمضيت اركض في اتجاه الطاهرة وانا الهث . ركضت وعزمت - ولكني بعد بضع خطوات ، تمهلت وأفقت ... افقت وهتفت واذا قتلها ؟ .. اذا استضعف أمام الرجل وقتلها هي ؟ ... قد يقتلها ؟ - لا بد أن يقتلها ! ..

ومثلت امامي المرأة الشائقة جثة ملوثة بالفضيحة ، مخنوقة او مذبحة بالجراح - فارتعدت فرائصي - تاه عقلي وتوقفت - توقفت وصرخت : أقتلها ، وأكون أنا ... انا ؟ ..

وتداعى جسمي كله ، ذاب شفقة عليها وحسرة - لم أستطع - لم يسعفني دل - لم يطاوعني قلبي - لم تستجب لي قواي - فحنيت راسي مستسلما ، ولم أحد بدا من أن اعود الى بيتي وأنا اتحسط بين حقي على ضعفي ، وعجزي عن الثار حتى من غريمي ، وضرورة التسليم بهزيمتي وفشلي ...

ومشيت ... مشيت كأني فقدت كل ما أملك ، وكأني قد بت فجأة في مهبط عمري ، لا شباب ينتظرني ، ولا مستقبل أمامي ، ولا حياة تدعوني ، ولا غاية أسعى اليها واعرف انها ذات قيمة وجدوى .

ولما اشرفت على ناصية حارتنا ، وهممت بدخولها ، رأيته ... نعم رأيته ... هو ... الحاج عبد السميع يخرج منها ... فتطلعت اليه كأني لا أعرفه ، فاتجه نحوي عامدا ، ولمحني بطرف عينه الكحلية ، ثم رشقني بلحظه طافرة ومحمرة ، واسبل في الشارع ، ومرق من أحد الدروب .

وفي تلك اللحظة ، وبينما كنت أتبعه النظر مشدوها مهكما غير مكترث ، حانت مني التفاتة ، فأبصرت عن بعد ، في أقصى الشارع ، الحاج طلبه مقبلا على مهل في صحبة ابنه شعبان ، فلم أشأ أن أراه ، لم أشأ أن أواجهه ، لم أشأ أن التقي به ، كنت خجلان من نفسي بعد أن خذلتني نفسي وعدلت عن مصارحته ، فانطلقت صوب الحارة ودخلت عمارتنا ....

غير اني لم أكد أدخل ، لم أكد اصعد أولى درجات السلم المعتم الذي كان يتراقص في جوفه ضوء فانوس خافت ، حتى تراجعت منهوتا وتسمرت ... لمحت شيئا يلمع ، شيئا يلمع ويتوهج ، شيئا أعرفه ، لمحت الكوفية الحريرية الصغيرة ... الكوفية الخضراء ذات الخطوط الدقيقة الحمراء ، الكوفية التي كان يلفها الحاج عبد السميع على عنقه العليظة ، منشورة على الارض بشراريبها المسبطيله ، وملقاة على عتبة باب السلم بهية ...

وسحبت الى الكوفية في حنو وادركت ... ادركت ان الحاج عبد السميع وقد هبط به الليل وحتى ان يسرقه الوقت ، وان يباغته الحاج طلبة وهو في بيته مع امرأته ، أسرع وخرج مستعجلا وملهوفا ، فلم يستخدم كوفيته الصغيرة ، ولم ينتبه الى انها لغرط نعومتها قد افلتت منه وسقطت على عتبة الباب ...

وفي مثل هبة الريح أو وقدة الحمى ، انبعثت قوتي ، ونقص ذلي ، وتصلد صلبي ، ورأيت في ضرورة الانتقام رمز رجولتي ، فاستبد بي الكمد والحقد ، ورايلني كل شعور بالشفقة والصفح وعزمت ، عزمت هذه المرة عزما قاطعا ، عزمت أن أدع الكوفية حيث هي ، ثم انتظر مقدم الحاج طلبه ، ثم اجهر امامه بالحقيقة ، واشفعها بهذا البرهان الصارخ الحي ...

وقبعت في جوف السلم وانتظرت ... انتظرت وأنا ثابت ، انتظرت وأنا واثق ، انتظرت وأنا متحفز ... وفجأة سمعت ... آه مما سمعت ... لم أسمع كلاما ، بل سمعت صوتا ... صوتا بعيدا ... وسمعت الصوت وقد اصبح قريبا ... ثم سمعته يتجه نحوي ، ويدنو مني ، ويتهدى الى كأنه يقصدني بالذات أنا وحدي ... سمعت وقع قبقاب السلم بهية ، يحفق حفقا ليا ونبيذا رشيقا على ارض يبتهج وما ان طرق هذا الصوت مسمعي حتى انحلت ... ارتخى ... واطرقت ،